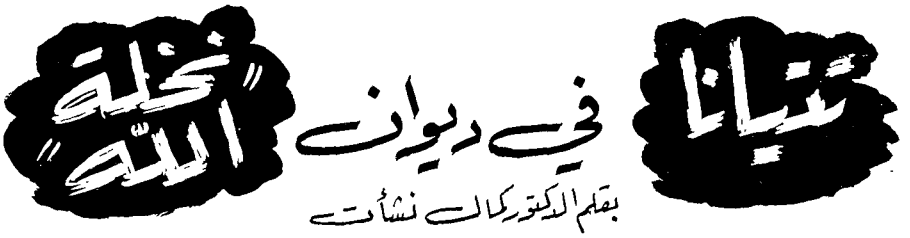

« تتيانا الكساندرفنا »
كان خريفا احمرا منذ سنين خمس
يطفح غضا ، ناعما كالهمس
حين التقت عيوننا
وامتزجت شفاهنا
للمرة الاولى
عبر غصون الشوح ، في حديقة المعهد ، كان الشوح مبلولا
في اخر الدرس انسللنا دون ان ندري
ودون ان نحفل في أمر
ولم نكن نعرف ايانا
ومن أنت أو من أنا ؟
وكل ما نعرفه اننا ...
كان خريفا ... آه تتيانا
حين يدور الثلج في الضوء ، ويصحو الشجر النائم
تنفتل الريح على السطوح مثل النغم الناعم
وتعبق الغرفة بالتبغ وبالكتب
اسمع من ينقر فوق الباب ، يأتي مسبل الهدب :
الشعر المحلول منذ برهة ينصب كالجدول
والشفة السفلى التي تمتد مثل الغصن المثقل
تلثم الوجه كما تلثم النيران
هشيم عشب .. مهمل .. مهمل
الشفة الهائلة العمياء مثل الزمان
في آخر المقهى انزوينا ، مرة في الشتاء
الفالس يدعونا فما نسمع دعواه
البونش حتى آخر السهرة ما امتدت يد تطرق منفاه
كانت يدى تعرق في كفك ، تخبو مثلما الوريقة الصفراء
وأورقت حديقة المعهد واصفرّت مرارا مرار
ومثلها أورق واصفر فؤادانا
ولم نعد نعرف ايانا
من أنت او من أنا
وكل ما نعرفه اننا ..
وكان صيفا .. آه تتيانا
في اول الدرس التقت ، من غير ان نعلم ، عينانا
ودون ان نحفل في امر
في آخر الدرس انسللنا دون ان ندري
وامتزجت شفاهنا
للمرة الاخيرة
عبر غصون الشوح ، كان الشوح مبتلا ، ندى الشمس
وكان صيفا اخضرا بعد سنين خمس

ان قصة الرجل والمرأة على قدمها ، تظل جديدة ابدا كتجربة حية للشعراء ، لا يمل الناس قراءتها او سماعها على الرغم من جوهرها الواحد وتكرار التعبير عنها . ولعل الذي يكسبها عمقها المتجدد هو اختلاف طعمها ورائحتها من شاعر الى شاعر . وها هي قصيدة حسب الشيخ جعفر تؤكد هذه القضية كما تؤكد في نفس الوقت ان الشعر الجيد هو الشعر الاقرب الى الواقع والمعبر عنه في صدق وحذق والهام . ان صدق التجربة يمنح القصيدة ملامحها الواقعية القوية التي تعطي القصيدة ارضيتها المميزة .. ونحن عبر قصيدة (تتيانا الكساندرفنا) نتابع القصة البشرية الجميلة ابتداء من صدفة اللقاء في حجرة الدرس الى اللقاء (عبر غصون الشوح في حديقة المعهد) الى الغرفة العابقة بالتبغ ورائحة الكتب الى جلسة المقهى والفالس يدعو العاشقين الخ ..

ان هذه التفاصيل الصغيرة العادية في مظهرها الواقعي ذات ايحاء قوي وتصوير مرهف حينما تتداخل لتكون اللوحة الكاملة لتجربة الشاعر .. وقد يظن ظان ان ذكر هذه التفاصيل الصغيرة امر سهل او هو شيء أقرب الى الفوتوغرافية ، فالفرق بين السرد السطحي والتصوير الفوتوغرافي عند شاعر تعوزه الموهبة الحقة وبين اختيار هذه التفاصيل الموحية الدالة عند شاعر موهوب فرق كبير استفاض فيه الحديث .

يقول فكتور هيجو (ان الالهام هو بمثابة الطائر الذي يخرج من البيضة ، فلو لم يتم احتضان البيضة والرفاد عليها لما افرخت وخرج منها الطائر ..) .

ان عملية الاختزان وتمثل التجارب السابقة وتأملها عملية سابقة للخلق الفني ، وفي لحظة الخلق يتم لا شعوريا انتقاء العناصر

اللازمة لبنيان القصيدة ..

انها عمليـة اختيار يجب خلالهـا ان تترك اشياء وتنتقي اشياء يقع الشاعـر عليهـا بحدسه وفطرته الفنيـة فتختلط مناظـر ومشاهـد بافكار وخيالات وتصورات ، وتتولـد من كل هذه المادة ذاتيـة القصيدة مضمونـا وشكـلا ... ويتم ذلك كله عبر عمليات نفسية معقدة ،تقوم في الاغلب على خبرات حسيـة مستقاة من العالم الخارجـي بعـد ان تخضع لقدرة تركيبية تربط بيـن اجزائها المختلفة . ولذلك كان الشعر خلقـا جديـدا للعالم الخارجي من خلال نفس فنان ، ومهمـا كان لـون القصيدة التعبيري ورؤيتها الشعرية ـ كعالم مستقل ـ فان الحقيقـة الباقيـة التي تجعلهـا شعـرا هي الجسر الخفي الذي يتلاقى عليـه الشاعـر والقارىء او هي الاضاءة الداخليـة التي تتيح للقارىء انيرى عالـم القصيدة . ومن هنـا كـان التشويش الصوري وهدم منطـق الجملة وهذيـان التخيلات ـ كما نـرى في بعض قصائد اليوم لـدى الشعراء الناشئين ـ ابعادا للقصيدة عن منطقـة الضوء اللازم ـ بقدر ما ـ حتى لا تصبح عالـما مغلقـا ، ذاتيا شديد الذاتية ، مطلسم الرموز، مختلط الصور .

ان « تتيانا » الفتاة الروسية هي نفسها « ساجدة » في بغـداد او « فاطمة » في القاهرة او « دوريس » في نيويورك .

انها صاحبة اللعبة الخالدة .. وهي في نفس الوقت القصيـدة نفسها .. انهـا فلـك الشاعـر الحميمة المثارة فـي دفء الذكريات البعيدة ، ولعلها لا تدري الآن ان الشاب العربي الاسمر الذي قابلتـه في قاعـة الدرس وتحت شجـر الشوح قـد جسدهـا في قصيدة عربية يقرأهـا المهتمـون بالشعر . ولعل الملمح الاول في هذه القصيدة هـو براعـة تصويرهـا الايحائي فصورهـا لمسات واقعيـة سريعـة تتآزر في وحدة نفسيـة وسياق عضوي ناجح (الثلج .. المطر .. شجر الشـوح الغرفـة العابقة برائحـة التبغ والكتب ..)

ان الشاعـر يربط بين الطبيعـة والحب لانهمـا وجهان لعملـة واحدة ، فقد تلاقت عيونهمـا (خريف غصن ناعم كالهمس) حتى قبلاتهما الاولـى كانت (عبر غصـون الشوح في حديقة المعهد) وهنا استوفت الصورة ابعادها ، ولكـن الشاعـرفي نفس البيت الاخير يقدم اضافـة ذات دلالـة حين يكمل البيت فيقول (كـان الشوح مبلولا) فاذا بلفظـة « مبلول » تعطيك احساس الري والشبع والامتلاء .. اجل .. الم يقل قبـل هـذا البيـت :

وامتزجت شفاهنـا
للمرة الاولـى

ولفظـة (امتزجت) ادل على الري والبلل من (التقت) فالتقاء الشفاه تلامس سطوح خارجيـة ولكـن الامتزاج فناء تضيع فيهالسطوح والتحديدات !

وقديما تحدث الناس عن الحب (من النظرة الاولى) وعلله بعضهم فأرجعه الى الجاذبية الجنسية التي تلفت نظر كل عاشق الـى الآخر ، ويبدو ان قصة الحب في هذه القصيدة ترجع الى هذا التقليل ، فلـم تكن للشاعر بفتاته معرفة .. ولكنها النظرة الاولى التي اندفعا بعدها من قاعة الدرس :

في آخر الدرس انسللنا
دون ان ندري
ولم نكن نعرف ايانا
من انت او من أنـا
وكل ما نعرفه اننا ...
كان خريفا .. آه تتيانا

وتبدأ الزيارات في الغرفة العابقة برائحة التبغ والكتب ، وتتيانا في كل لقاء بشفتها التي (تمتد مثل الغصن المثقل) تلتهم وجهه التهام النار للهشيم كما يقول ... حتى اذا كانا في احـد المقاهي جلسا دون ان يقوما للرقص وكانت يده في يدها (كانت يدي تعرق فـي كفك) ، وينتقل الشاعر نقلة طريفة حاذقة ، فهو يريد ان يعرفنا ان العلاقة قـد استمرت سنين عديدة ، ولذلك لجأ الى الايحاء عن طريق ندأعي المعاني .. فحينما قال ان كفه رقدت في كفها كوريقة صفراء ، كانت لفظـة (صفراء) الجسر الذي عبر عليه الـى تأكيد مرور السنين علـى علاقتهما :

كانت يدي تعرق في كفك
تخبو مثلما الوريقة الصفراء
وأورقت حديقـة المعهـد
واصفرت مرارا .. مرار
ومثلها اورق واصفر فؤادانا

وهكذا عبر التقاء (الاصفرار) في صور مختلفة ربط اللون بينهـا استطاع الشاعر ان ينقل الينا فكرة مرور زمن طويل على حبه لتتيانا .

ان ميزة التصوير الموحي التي نلمسها في هذه القصيدة تتضح في تصوير جوين .. الاول هو الجو (الخارجي) ففي الصباح (يدور الثلج في الضوء ويصحو الشجر النائم) والريح « تنفتل » فوق السطح مثل « النغم الناعم » ، وبعد هذه المقدمة المصورة لصحوة الحياة ممثلة في الشجر الذي استيقظ وفي الضوء الذي يدور فـي الثلج وفي الريـح التي هدأت حتى أصبحت تمر كالنغم الناعم ، ينتقل الى تصوير الجـو (الداخلي) .. جو الغرفة التي تعبق برائحة التبغ والكتب . ومعنـى ذلك ان الشاعر قد استيقظ مع الحياة المستيقظة خارج الغرفة وبـدأ يدخن .. وهنا .. بعد هذه المقدمة المصورة للجوين الخارجي والداخلي وجوهرهما الواحد وهو (اليقظة) تم تصوير المشهد الذي سيتحقـق فيه اللقاء بعد ..!

« اسمع من ينقر فوق الباب »

وتدخل « تتيانا » التي نستطيع ان نستشف بعض ملامحها المادية والنفسية عبر أبيات القصيدة ، فنعرف انها كشاعرها يقظـة الحس ، فوارة بالحياة ، فشفتها السفلى « تمتد كالغصن المثقل » وهـي صورة دالة على هذه اليقظة .

الا ان القصة يجب أن تكون لها نهاية مثل اية قصة مـن قصص الحياة .. فبعد ان وصف الشاعر اول العلاقة فكـان ان « امتزجت شفاهنا للمرة الاولى عبر غصون الشوح في حديقة المعهد ـ كان الشوح مبلولا » رجع الشاعر ليسدل ستار القصة بقوله (وامتزجت شفاهنـا للمرة الاخيرة عبر غصون الشوح ، كان الشوح مبتلا ، ندى الشمس).

لقد كان شجر الشوح (مبلولا) في اول لقاء ، ولكنه اصبح فـي اللقاء الاخير (مبتلا ندى الشمس) .. هناك اضافة اذن هي (نـدى الشمس) .. الشمس التي ستجفف البلل رمزا لانتهاء العلاقة التـي يلعب فيها شجر الشوح نقطة الابتداء والانتهاء .

ان حسب الشيخ جعفر يهيىء للقصيدة مناخها الخاص عبر اسلوب يعتمد على ابتداع شخصي في التصوير والتعبير شأن الشاعر الموهوب، وهو من الدقة الى حد انتقاء اللفظ الدال بمعناه وظلاله وايقاعـه .. مثل « تنفتل الريح على السطوح مثل النغم الناعم » فالفعل تنفتـل اكثر ايحاء بمعناه وجرسه وبخاصة اذا شبه الريح في انفلاتها بـ «النغم الناعم » فانطلاق الريح على السطوح هذا الانطلاق المتموج الهادىء يشبه انطلاق النغم الناعم في اذن الشاعر العاشق وان كان لفظ « الريـح » في مدلوله العام بعيدا عن اللحظة النفسية التي مرت بالشاعر يتناقض مع النعومة .. ولكن هي نفس الشاعر العاشق التي تسبغ كثيرا مما بها

على العالم الخارجي . اما صورته التالية (الشفة الهائلة العمياء مثل الزمان) فهي صورة تتأرجح بعيدا عن الدقة واكتمال الدلالة في جزئها الاخير ، وان كان وصف الشفة بـ (الهائلة) تجسيم لاحساسه فقد سبق ان قال عنها بانها (تمتد مثل الفصن المثقل) .. ووصفها بـ (العمياء) ادق صورة في رسم وقوع الشفة دون اختيار على كل مكان في وجه الشاعر ولكن (مثل الزمان) فيها نظر !

فالشفة (الهائلة العمياء) تصوير رفيع لواقع ملموس .. ولكن عقد شبه بين الشفة والزمان بعيد الشقة مفقود الصلة .. الشفة كما قدمها الشاعر وكما هي في تصور القارىء واقع مادي ملموس والزمان فكرة مجردة والربط بين الاثنين فيه اعتساف !

واذا كانت الحواس هي وسيلة اتصالنا بالعالم الخارجي ، فان العين هي اقوى هذه الحواس ، ولذلك كانت اكثر المجازات مستمدة من « احساساتها » واغلبها في مكوناتها « اشكال » بصرية تركب من جديد لتصبح صورا شعرية .. وعين حسب الشيخ جعفر قوية نفاذة ، واغلب شعره يعتمد على هذه الحاسة الهامة ، وان كانت حواسه جميعا مفتوحة على العالم في نهم عارم على خلاف ما لاحظته في لقائي الوحيد السريع له في المقهى البرازيلي ببغداد بصحبة عبد الوهاب البياتي .. انه يبدو صامتا خجولا اقرب الى الانطوائيين ولكن يبدو انه بركان ثائر صغير ذو قشرة صامتة !

وهو محب للحياة ممثلة في المرأة .. فهي اكثر صور الحياة تأثيرا فيه ولذلك حمل لها عبادة الاشواق النارية . الا ان هذا الاتجاه محدود ، يدور في فلك اقرب الى التشابه ، ومن هنا كانت تنيانا فتاة غامضة الملامح الا ملامحها الجنسية ، فكل ما نعرفه عنها هو ابعاد مادية تتناول السطوح الخارجية .. مثل الشعر المحلول .. والشفة المثقلة التي تلتهم الوجه كما تلتهم النيران هشيم العشب المهمل ! والا استنتاجنا من هذه المقدمات طبيعة نفسيتها الشهوانية .

والتركيز على هذه الوجهة حدد العلاقة بين الشاعر والفتاة بحيث ادركنا انها مغامرة من مغامرات الشباب ، ونحن لا نعيب اتجاه القصيدة ما دامت هي تجربة الشاعر الصادقة ولكننا نقرر اهم ملامحها ما دمنا نتحدث عنها .

بغداد

كمال نشأت

اللامنتمي

دراسة تحليلية لأمراض البشر النفسية في القرن العشرين

و

ما بعد اللامنتمي

«فلسفة المستقبل»

اشهر واعمق كتابين للكاتب الانكليزي المشهور

كولن ويلسون

صدرا في طبعتين جديدتين انيقتين

منشورات دار الآداب